بريد الجمعة

ثراء
المعارف الرقمية

بريد الجمعة
الجمعة ٩ يونيو ٢٠٠٠

يكتبه : عبدالوهاب مطاوع

السنوات الضائعة !

أنا سيدة أقترب من الأربعين، نشأت فى أسرة متوسطة الحال وكنت الابنة الوحيدة بين إخوة لأب وأم طيبين ويتعاملان مع الحياة بلا خبث ولا التواء. ولأننى الابنة الوحيدة فلقد تمتعت بشىء من التدليل من جانب أبى وأمى. ووقفت أمى إلى جوارى حتى أنهيت تعليمى الجامعى وعملت.. وكنت كغيرى من الفتيات أنتظر منذ وقت طويل فارس الأحلام الذى سيجىء راكبا سيارة فاخرة ويقيم فى فيللا فخمة لكى يخطف قلبى وأعيش معه فى سعادة وهناء.. واستغرقت فى أحلام اليقظة فطال انتظارى دون أن يجىء هذا الفارس المنتظر، ورفضت بسبب خيالى المريض هذا كل من تقدموا لى لغير أسباب جوهرية فى شخصياتهم.. وفى كل مرة أرفض فيها عريسا تبكى أمى بحرقة وترجونى هى وأبى أن أقبل لكيلا يتأخر بى العمر دون زواج.. وكان من بين من رفضتهم صديق لأخى الأكبر، وكان سبب رفضى له أنه موظف محدود الإمكانات ولا تتوافر فيه صفات فارس الأحلام من مسكن فاخر وسيارة فارهة ورصيد فى البنك.. فمضى بى العمر حتى بلغت سن الثلاثين دون زواج. ثم جاء أخى ذات يوم وأبلغنى أمام أبى وأمى أن صديقه الذى سبق له أن تقدم لى قبل ست سنوات لم يوفق فى الزواج ويريد أن يتقدم لى من جديد.. فراح أبى وأمى يضغطان على لقبوله ويهدداننى بأن يغضبا على حتى الموت إن لم استجب لهما.. وشاركهما إخوتى الرجال والتهديد بالمقاطعة إذا رفضت.. وإزاء هذا الضغط الشديد قبلت بالزواج من هذا الصديق وأنا كارهة له.. وتم الزواج فى وقت قصير، حيث كان يملك شقة كاملة الأثاث بالرغم من ضعف إمكاناته.. وانتقلت إلى عش الزوجية بعد أسابيع قليلة..

وبدأت حياتى الزوجية معه بلا حماس ومضت أيامنا وشهور: الأولى وأنا كارهة لزوجى لا أتحدث معه إلا نادرا ولا أبى طلباته.. ولا أتجاوب معه فى شىء.. ولا أحفل بشىء يسعده ولا أحزن لشىء يؤلمه.. ولا أشاركه مشاعره وأحلامه وأفكاره.. ولا أجامله فى أى شىء بل أثور عليه بعصبية شديدة كلما دعانى لذلك داع مهما يكن تافها .. فى حين يرد على هو بهدوء شديد.. ويحاول الاعتذار عما أغضبنى وإن لم يكن قد أخطأ فى شىء.. ولاحظت أمر جفاء معاملتى له ونصحتنى بإحسان عشرته.. فلم استجب لها وكان من الطبيعى أن يتأكد زوجى من كراهيتى له.. ويضيق بسوء معاملتى معه.. ويفقد صبره على ويطلقنى بعد بضعة شهور، لكنه لم يفعل ولم يشك من سوء معاملتى لأحد من أهله أو أهلى.. بل كان يثنى على ويشيد بأخلاقى.. ثم شاءت إرادة الله أن حملت بمولودى الأول.. وبدلا من أن أسعد بحملى كما تفعل كل النساء، فقد شعرت بالحزن والاكتئاب وحاولت إجهاض حملى ببعض الحيل الملتوية فى هذا الشأن.. فلم تنجح محاولاتى.. واستسلمت لمصيرى وجاء مولودى فى موعده طفلا جميلا، فسعد به زوجى سعادة طاغية ورأيت فرحته الطفولية به فرق قلبى له لأول مرة.. وبدأت الأحظ طيبة قلبه وحنانه ورقته.. وسألت نفسى لماذا قسوت عليه وجفوته على هذا النحو لمدة عامين كاملين ولغير سبب سوى أن أحلام يقظتى السابقة لم تتجسد فيه ؟ وماذنبه هو فى هذه الأمنيات والأحلام التى قد تراود أية فتاة.. وقد جاءنى يطرق بابى من الطريق المشروع وقبلت به وشاركته حياته ؟ وبدأت أغير طريقة تعاملى معه واستجيب لطلباته.. وبدأت استمع إلى حديثه وذكرياته وأرائه وأحلامه فإذا بى أكتشف فى حديثه متعة عجبت لنفسى كيف لم اكتشفها من قبل وإذا بى اكتشف فيه إلى جانب طيبة قلبه ورقته، رجاحة العقل والرأى الصائب.. وأنه موضع احترام كل من يتعاملون معه وموضع ثقتهم..

وتغيرت نظرتى إليه تغيرا كاملا.. وشعرت بسعادة جميلة فى الحياة معه لم استشعرها من قبل.. وأصبحت الأوقات الثقيلة التى كانت تمضى بى وهو فى البيت أوقاتا سعيدة وخفيفة.. وأصبحت لا أطيق البعد عنه لفترات طويلة بعد أن كنت أفتعل الأسباب للخروج وحدى ولرفض خروجه معى أو لقضاء بضعة أيام فى بيت أهلى..

وسألته ذات يوم ونحن فى لحظة صفاء لماذا صبر على طوال فترة مجافاتى له ولم يطلقنى، فأجابنى بهدوء بأنه يحبنى منذ تقدم لطلب يدى لأول مرة قبل سنوات.. وأنه كان واثقا بالرغم من جفائى له من طيبتى وأخلاقى ويأمل فى أن أتغير للأحسن مع الأيام.. فلم أتمالك دموعى، وشعرت بالندم لرفضى له فى المرة الأولى قبل سنوات ولمجافاتى له بعد الزواج. وأقبلت على حياتى معه بكل الحب والإخلاص والرغبة فى السعادة. وأنجبت منه طفلة ثانية.. واختفت المشاجرات والخصام من حياتنا نهائيا.. وسعدت أمى وأبى بسعادتى واستقرار حياتى سعادة قصوى.. ثم رجع زوجى من عمله ذات يوم مجهدا فسألته عما به فأجابنى بأنه مجرد إرهاق سوف يزول بعد الراحة.. وبالفعل استسلم للنوم ساعتين ونهض.. وتكررت بعد ذلك نوبات الاجهاد والإرهاق من حين لآخر، وكلما سارونى القلق وسألته عما يحس به طمأننى إلى أن كل شىء على مايرام وليس هناك مايدعونى للقلق.. واستمر الحال على هذا النحو حوالى عامين. ثم تسارعت الأحداث أمامى وأنا مشدوهة لا أصدق مايجرى.. فلقد تكررت الأزمات وتقاربت.. وهو يصر على أنه لا يعانى شيئا سوى الإرهاق، ويشغلنى عن الحديث فى هذا الأمر بمداعبتى.. ومداعبة الطفلين والحديث عن أمنياته لهما فى المستقبل إلى أن جاء اليوم الذى استسلم فيه للمرض فجأة ونقل إلى المستشفى وأمضى به أسبوعين، ثم انطفأت شمعته ورحل عن الحياة بعد سبع سنوات من زواجى منه.. وانهارت أمام الكارثة انهيارا تاما وأصبت بحالة اكتئاب شديدة، وتمالكت نفسى بصعوبة لكى أرعى الطفلين اللذين وهبهما لى الله من هذا الإنسان.. وأرى فيهما ملامحه الطيبة وروحه النبيلة..

وفسر لى أخى الأكبر بعد ذلك ماأستعصى على فهمه من هذه الأحداث المؤلمة، فقال لى إن زوجى قد أصيب بأزمة صحية ذات يوم منذ عامين وفحصه الأطباء، فاكتشفوا إصابته بمرض خطير وتأخر حالته، وأنه راح يتداوى من دائه المتحايل وهو يتكتم عنى مرضه لكيلا أنزعج أو أشعر بالقلق والخوف من المستقبل.. إلى أن هزمه المرض فى النهاية وانتقل إلى جوار ربه راضيا مرضيا برحمه الله.

فهل رأيت ياسيدى إنكاره لذاته حتى وهو فى أشد حالات الألم والمرض والمعاناة ؟

إننى لا أعترض على قضاء الله وقدره.. لكنى حزينة على فترة العامين التى جافيت فيهما المرحوم زوجى وكرهته بلا ذنب جناه.. وأسأت معاملته.. وجفوته..

بل إننى حزينة على السنوات التى أضعتها من عمرى حين رفضت قبوله زوجا لى قبل أن أرتبط به بست سنوات.

وأتساءل الآن : ماذا لو كنت قد قبلت به.. وعشت معه فى سعادة وأمان إلى أن اختاره ربه إلى جواره؟.. ألم أكن قد أضفت بذلك إلى سنوات السعادة القليلة التى عشتها معه ثمانية أعوام كاملة ؟

أولم تكن هذه السنوات الإضافية من السعادة قد أصبحت لى الآن زادا جديدا يعينى على احتمال الحياة ؟

إننى أنصح كل فتاة بأن تتواضع بشأن فارس الأحلام الذى تنتظره.. وأن تتخلى عن التكبر والغرور فقد تكتشف السعادة مع أبعد الأشخاص عن نموذج فارس أحلامها.والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

زوجك الراحل ياسيدتى واحد من هؤلاء الأشخاص الذين يعبرون الحياة كما تعبر النسائم الرقيقة بالوجوه فى حر يوم قائظ فتلطف من إحساسها بالهجير، وتترك وراءها أطيب الأثر وأمثال هؤلاء الأشخاص يتسمون غالبا بإنكار الذات والصبر على المكاره وقلة مطالبهم من الآخرين ومن الحياة، وتقبلهم لأقدارهم فيها بلا سخط ولا أنين، كما ينسمون كذلك بتطلعهم المحروم غالبا للسعادة.. ورغبتهم فى إسعاد الآخرين وتسامحهم مع الحياة فيما ضنت به عليهم وبالقدرة على العطاء للغير والرفق بهم.

ومن أسف أن عبورهم بالحياة يكون سريعا متعجلا فى كثير من الأحيان ولو طال بهم المقام لزادوا من مساحة الحب والخير والجمال فيها، وقللوا من مساحة القبح والشر والمعاناة.. لكن متى استقر طيف عابر فى مكان واحد ؟

فإن كان ثمة مايستحق الحزن عليه بالفعل.. فهو أننا قد «نجهل» فى كثير من الأحيان أقدار هؤلاء الأشخاص وهم بين ظهرانينا.. ولا نكاد نكتشف جمال أرواحهم وأنس عشرتهم حتى تكون شمس حياتهم قد أذنت بالمغيب.

ومن خطايا الإنسان فى حق نفسه وحق الحياة على السواء انه كثيرا مايجهل أسباب السعادة الحقيقية المتاحة له.. ويضرب فى الصحراء باحثا عنها ! وانه قد يحتاج فى بعض الأحيان إلى من «يجبره» على السعادة المتاحة له كما فعل معك أبواك وأخوتك حين ضغطوا عليك بشدة لقبول هذا الزوج المضحى بعد أن رفضته أكثر من مرة.

وقديما قال المفكر الفرنسى مونتسكيو إنه ليس هناك شخص لا يزوره الحظ السعيد ولو مرة واحدة فى حياته، غير انه إذا لم يجده على أهبة الاستعداد لاستقباله فإنه يدخل من الباب ويخرج من النافذة، ولقد زارك الحظ السعيد حين تقدم إليك هذا الرجل مرة ثانية ولولا أن ضغط عليك أبواك لقبوله بعد أن طال بك انتظار فارس الأحلام لما عرفت السعادة الحقيقية فى حياتك الزوجية ولولا أن صبر عليك زوجك بطبيعته المضحية الراضية بالقليل من الحياة ومن الآخرين لما أتيح لك ان تكتشفى جمال شخصيته وعمق حبه لك، فتتفتح له مسامك ومشاعرك بعد إغلاق، ولما اكتشفت فيه كذلك بعين المحب كل ماخفى عليك من قبل وانت تنظرين إليه بعين الكاره المتأفف خلال عامى الجفاء فى بداية الزواج.

فإذا كانت السعادة قصيرة فى حياتك كما هو الحال فى بعض الأحيان.. فإن عزاءك عن ذلك هو أنها كانت حقيقية وصادقة.. تثرى القلب والوجدان.. ولسوف تكون زادا معنويا لك يعينك على الصمود لتجربة الأيام، ومن مفارقات الحياة المؤلمة أنها قد تكرر فى بعض الأحيان ماشكا منه المتنبى حين قال :

تفضلت الأيام بالجمع بيننا
فلما حمدنا لم تُدمنا على الحمد

لكن ماذا نفعل ياسيدتى فيما قضت به المقادير وماذا نملك سوى الامتثال لإقدارنا.. والرضا بها.. والتعزى عن آلام الحياة بذكريات السعادة الحقيقية.. والتمسك بالأمل فى رحمة الله.

إننى أشكرك على رسالتك التى تحذر الفتيات من الاستغراق فى أحلام اليقظة.. والتكبر والغرور، وأرجو أن يستفيد الجميع بتجربتك فى إهدار بضع سنوات ثمينة من العمر فى التكبر على السعادة و«الجهل» بها..